

المحامل العربية

Les Incunables arabes.

١ - تونس

لله درك . ايها اللغة العربية ! كلما شاخت اللغات ، وهرمت ، وولت ،
تألق نور شبابك ، وغض اهابك ، وتجل ونائمك لرقى معارف ابناء العصر !
وكلما قدمت تلك الالسنه ، وعثقت ، وبلبت ، زدت جدلا ، ورخوصة ،
وبضوصة !

كنا نظن انك تقصرين في تأدية النطق ببعض الالفاظ التي لم يتصور انك
تجدين لها مقابلا في كنزك اللغوي ، لان تلك الاسور او تلك المعاني او تلك
الاولضاع لم تكن تخطر على بال انتمين اليك ، واذا بك تؤدين تلك المصطلحات
احسن تأدية ، وتوفينها حقها من الضبط والاحكام والاتقان ، حتى لنظن ان
مصطلحك خير من مصطلحهم .

عند الاقرب كلفة « انكنابل Incunable » ويراد بها كتاب برز الى
عالم الوجود في اول عهد الناس بالطباعة . والكلمة الافرنجية مشتقة من اللاتينية
Incunabulum ومعناها المهد . كأن الكتاب وجد في زمن كانت الطباعة في
مهدا .

وكنا نظن اننا لانظني لها ما يقابها في لغتنا للضادية . والجل اننا وجدنا في
المخصص لابن سيده . قوله في باب الكتاب وآلاته (١٣ : ٤) : المحمل
(اي وزان مجلس) : الكتاب الاول . وهو وصف يوافق لما نريده كل
الموافقة .

فالكتب المطبوعة يوم كانت صناعتها في مهدا ، هي الكتب الاولى ،
بالنسبة الى ما جاء من بعدها ، ولهذا صبح ان نقابل بها ما سميها الاقرب
« انكنابل » ، ولا سيما لان في اصل مادة ح م ل ما تساعد على اتخاذ هذا
اللفظ : فكان النسخ الجديدة المطبوعة بعد هذه النسخ القديمة الامت تعدم
عليها فيوقوفها او في انتظامها اعتماد الجديد الضعيف على القديم القويم الراسخ
القديم . اذ من معاني المحمل العتمد . والمحمل ايضا موضع تحميل الجوانح وهو

كذلك، اذ عليه تقرر وتقوم جميع المطبوعات كما يقوم اهل البناء على الاساس الذي هو موضع قوام البناء .

ومن معاني الحمل ايضا : العودج (وهو في هذا المعنى يأتي على وزن منبر ومجلس) وهو يوافق ايضا للمعنى الذي نشده هنا . ولا سيما لانه يكاد يلائم الحرف الافرنجي في الوضع ، فكما ان الافرنج يسموا شمامهم باسم متخذ من المهد ، كذلك يجوز لنا ان نسميه بما سموه هم ، اي بلفظ يكاد يعني المهد لان الطفل يحمل فيه . والهودج يتخذ له او لكل ضعيف مثله لا يقوى على السير البعيد الشاق .

وعليه سمي الكتاب الاول بالمحمل (اي بالهودج) لانه كان يومئذ كأنه يوضع في هودج لحدائث وجوده او لطفولته اولضعفه . وكل ذلك من باب المجاز الواسع المدخل .

فانت ترى ان هذه الكلمة كيفما قلبتها ، انقلبت بين يديك على احسن وجه لما تريد . كأنها تقول لك في كل وجهة وجهتها : انا المعنى بقولك : الكتاب .

٢ - المحامل الافرنجية

يعتبر « محلا » عند الافرنج ، كل كتاب طبع قبل سنة ١٥٠٠م والمحامل عندهم على قسمين : محامل خشب ، او نقر ، ومحامل حروف فمحامل النقر ، او محامل الخشب ، ما طبع منها في ذلك العهد ، وكانت حروفها منقورة او محفورة على الواح من خشب .

ومحامل الحروف هي ما صفت حروف كلماتها ، متخذة من مواد متحركة كانت من خشب في اول الامر ، ثم من مواد معدن كالرصاص وغيره بعد ذلك . فمن محامل الخشب ما عرفوا باسم : «توراة الفقراء» و«التوناتس» (وهو كتاب في نحو اللغة اللاتينية) لمؤلفه اليوس دوناتس من نهاية المائة الرابعة للميلاد ، وكان صنيفه معروفا في جميع المدارس كالأجرومية في الديار العربية اللسان . «ومرآة الخلاص» وهو باللاتينية ايضا ، وهذه التأليف سابقسة لسنة ١٤٤٠ .

ومحامل الحروف كثيرة ، الا اننا نجتري . بذكر اقدمها وهي : توراة

مازارين وقد طبعت بين سنة ١٤٥٠ و ١٤٥٥ ، وتوراة شيرن وهي من سنة ١٤٦١ على اقل ما يقال عنها ، واغلب الباحثين يظنون انها لغوتبرغ نفسه - ومرصوصة (او براءة بابوية) الففران لنقولا الخامس (سنة ١٤٥٤) وزبور سنة ١٤٥٧ وزينة الفروض الالهية لدوران (سنة ١٤٥٩) .

واغلب هذه المعامل النادرة لا توجد اليوم إلا في خزائن الكتب العامة منذ

عهد بعد .

٣ - المعامل العربية

المعامل العربية هي التي طبعت في سنة ١٥١٤ في رومة الى سنة ١٥٥١ في فروق وما جاء بعد هذه السنة لا يعد محملا . وان كان مما يحتفظ به (راجع لفئة العرب ٤ : ١٤٩) .

وقد رأينا عند صديقنا البغدادي الدكتور ناجي بك الاصيل كتابا مطبوعا في اللغتين العربية واللاتينية غير معروف عند الوراقين اوصرعى الكتب القديمة ودونك وصفه :

في الصفحة الاخيرة من هذا الكتاب وهي الصفحة الاولى على طريقة الافرنج مكتوب في رأس الوجه Heidelbergae وهي كلمة لاتينية معناها « في هيدلبرغ » اي طبع في هيدلبرغ وهي مدينة في دوقية بادن (المانية) وفي اسفل الوجه هذه الكلمات Exceudebat iacob Mylius.—M. D. xxciiii ومعناها طبعه يعقوب مليوس سنة ١٥٨٣ وبين هذين السطرين اللذين في رأس الصفحة واسفلها نقش ختم كبير يمسكه اثنان من الملائكة وفيه صورة قد رسم فيها يد قابضة على اكليل متخذ من انواع الازهار مضبوطة على ظهر حية وقد كتب حول هذا كله هذه الكلمات باللاتينية :

Jacobus Mylius. Coronas annum benignitate tua. Psalm. 65. ومعناها : يعقوب مليوس . بكل السنة بكرمك . المزمور ٦٥ « فالظاهر من هذا الكلام ان الطابع نشر الكتاب المذكور في اوائل سنة ١٥٨٣ ويطلب الى الله ان يباركها فيها ويجعلها ميمونة عليه . وقد وجد في المزمور الخامس والستين (وهو على الحقيقة الرابع والستون) آية توافق هذا الدعاء وهي الآية الثانية عشرة منه ونصها : بارك اكليل السنة بكرمك . وفي ظهر هذه الورقة حروف

الهجا بالذات العبرية واللاتينية والعربية، ويظهر ان الطابع كان يجعل كل الجمل صور الحروف العربية لانه ابتداء برسم حروف الهجا العربية مبتدئا بالياء وخاتما اياها بالالف . مع انه وضع بارائها الحروف العبرية واللاتينية بوضعها المؤلف كما في العربية . فالبائن ان الطابع قلب عمود الحروف العربية فجاء ما كان في الاول آخر او ما كان في الآخر اولاً . اي ان الذنب اصبح رأسا والرأس ذنبا بخلاف حروف اللغتين العبرية واللاتينية فان الترتيب فيهما على احسن مايرام . وبعد هذه الحروف ذكر في الصفحة التالية هذه الكلمات العربية مع ترجمتها اللاتينية وهي : اربعة رحل (بمعنى اربعة رجال) ، ثلاثة عشر رجلا (اي ثلاثة عشر رجلا) ثلاثة مائة رجل (اي ثلثمائة رجل) وفي الصفحات التالية ذكر الأرقام بموجب ترتيبها اي اول ثان (وكتبها ثنائي) ثالث ... ثم بموجب العدد اي احد ثمن ثلاث ... وهكذا سار في طريقه من ذكر حروف المطف والجرج والظرف الى ذكر الفاظ مختلفة

اما اذا فتحت الكتاب من اوله على الطريقة العربية فانك ترى في مستهله :

« بسم الاب والابن والروح القدس اله واحد »

« رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية . » ثم ذكر ترجمة هذه الانفاظ

الى اللاتينية .

وبعد ذلك قال في تلك الصفحة باللاتينية مامعنا : وفيها ايضا (اي في الرسالة

المطبوعة : ستة فصول الديانة المسيحية وهي الفصول الاولى باللغة العربية . وقد

اضيف اليها في الاخر خلاصة النحو العربي لمؤلفها رنفرس سبي .

وفي تلك الصفحة الاولى آية من كتاب دانيال النبي من الاصحاح السابع

بالحرف العبراني ثم آية من القديس بولس الى اهل فيلبي مأخوذة من الاصحاح

الثاني مدرجة بحرفها اليوناني .

وفي الصفحة التي تلي هذه الورقة الاولى مقدمة طويلة عرضت بوجهها المؤلف

الى صاحب السمو والشهرة البد . (اي البرنس) لويس (او لودوفيكس) دوق

بشارية يذكر له فيها سبب تأليف هذا الكتيب وهو ان اللغة العربية هي من

اللغات القديمة ويجب تعلمها لانها توصلنا الى اتقان اللغة العبرية التي هي اول

اللغات واقدمهن . وان اصحاب اللغات الشرقية بقوا مجاورين بعضهم لبعض بعد الطوفان ، ولهذا تشابه لغاتهم . بخلاف اصحاب سائر اللغات فانهم تفرقوا في انحاء المعمورة منذ اول عهد البشر بالهجرة والظمن ، فاختلفت لغاتهم ، وتباينت لهجاتهم الى يومنا هذا . ثم يقول بحسن بنا ان نتقن لغات الشرق لنشر الديانة المسيحية بين اولئك الذين يجهلوننا ، او لا يعرفون محاسنها ، وعلى هذا الوجه نستفيد ونفيد . فموضوع المقدمة اذن ديني لغوي تاريخي .

والمقدمة طويلة في ١٤ صفحة ثم يليها صفحة ونصف وفيها كلام عنواني « الى القارئ » وبعد ذلك آيات بالعربية والعربية مكتوبة في وجهين وبعد ذلك يتبدى كتابه بقوله : « رسالة الى اهل غلاطية . وهي من العدد الرابعة (كذا) ثم ينتقل الى ذكر تلك الرسالة على صفتين : صفحة عربية وصفحة لاتينية . وهو ينقل باللاتينية المكتوبة على الصفحة اليسرى من القابض على الكتاب ماجاء في النص العربي سطرا بسطر . وخط النص العربي قبيح المنظر كتب احدهم الاقرب بقلم سي. البري ، او بريشة افرنجية القط . والكلمات كلها منقورة في الخشب وليست مركبة من حروف متقطعة متقلدة ، وهذا ما يتبين لك اذا ما انعمت النظر في تركيب الكلم واتصال حروفها بعضها ببعض .

وعلى اوراق الكتاب كله ٤٢ اي ما يساوي ٨٤ صفحة وطول الصفحة ١٩ سنتيمترا في عرض ١٥ سنتيمترا . وهو مغلف غلاف اربد (رمادي اللون) احمر الاطراف . اشترى صاحبه في المائة لغرابته وندرته .

ومن المصيب ان العلامة كريستيان فريديريكس دي شنوزر الالماني صاحب كتاب خزانة الكتب العربية الذي ذكر فيه انواع الكتب العربية المطبوعة في العالم منذ اول عهد الطباعة لم يذكر هذا المصنف في باب كتب النسخ ولا في باب النصرايات ولا في اي باب كان . وهذا مما يحملنا على الظن ان هذا الكتاب لم يطبع منه نسخ كثيرة او لم يذع في اوربة مما يجعلنا اذا ثمن عند الادباء الوراقين . وكذلك لم يذكر هذا الكتاب كل من بحث عن تاريخ المطبوعات العربية في اول عهدها كبرجي زيدان وغيره . ولهذا اشبعنا الكلام في وصفه .